٩

ابن بطوطة فى الشام

أطال ابن بطوطة الإقامة فى الشام لأنه كان ينتظر موعد خروج الرَّكْب الشاميِّ إلى الحجاز من ناحية ؛ ولأن بلاد الشام أعجبته من ناحية أخرى ، فمضى يتنقَّل فى ربوعها على هِينَةٍ ، وقد وقفنا عند زيارته للقدس الشريف.

مدينتا طرابلس

ونعود إلى مصاحبته فى رحلته ، فنجده فى طرابلس، وهو يتحدث هنا عن المدينتين: القديمة التى كان الصليبيون قد أنشأوا فيها إمارة صليبية ، ثم الجديدة التى أنشأها المسلمون بعد أن استعاد الظاهر بيبرس ميناء طرابلس من الصليبيين مع حصن الأكراد سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م .

وحديثه عن طرابلس طريف ، وهو يعطينا فى سياقه نموذجاً من عدل أمير المدينة المملوكيِّ وهو سِنْدمور ، فقد أتت إليه امرأة تشكو أن أحد رجاله قد اعتدى عليها بأن شرب منها لبناً ولم يدفع ثمنه ، فأمر الأمير بتوسيطه ، أى: بقطعه قطعتين بالسيف من وسطه ، فلمَّا فعل به ذلك ظَهَرَ اللبن فى مصرانه !

وهذا - فى رأى ابن بطوطة - مثال بيِّن على تحرِّى العدل ما أمكن ، ولا ندرى ماذا كان يفعل الأمير لو لم يجد اللبن فى جوف المسكين ؟

حصن الأكراد

ومن طرابلس انتقل إلى حصن الأكراد ، هذه القلعة الهائلة التى طالما اعتز بها الصليبيون حتى استولى عليها الظاهر بيبرس - كما ذكرنا ، وما زالت آثارها ماثلة للعين تبهر الأبصار .

حماة وحمص ومعرة النعمان

ثم زار حَماة وتحدث عن نواعيرها وأرجائها ، وحِمْص التى يزيِّنها قبر سيف الإسلام خالد بن الوليد قريباً منها ، ويزور مَعَرَّةَ النُّعْمَان ، ويذكر قبر عمر بن عبد العزيز بها .

صناعة الصابون عند العرب

ويقف عند سِرْمين ويتحدث عن صناعة الصابون بها . وكان بعض علمائنا ينكرون أننا نحن اخترعنا الصابون ، وعند ابن بطوطة الرد الحاسم، فهو يقول إن بهذه البلدة «سرمين» يُصنع الصابون الآجُرى ، أى : فى صورة قِطَع على هيئة الآجر ، وفى ظنى أن هذا هو الصابون النابلسى ، ثم يقول إن بهذه البلدة «سرمين» يُصنع « الصابون المطيَّب لغسل الأيدى ، ويصبغونه بالحمرة والصفرة ». وقبل ذلك بقرنين ذكر الإدريسى صناعة الصابون فى البهنسا من مدن مصر . وعن العرب أخذ الغرب الصابون صناعةً واسماً ، وأول ما ظهر فى أوربا كان فى إيطاليا باسم Sappone،وفى إسبانيا النصرانية وكانوا ينطقون به - إذْ ذاك - jabòn، واليوم Jabòn[1]، وفى فرنسا Savon ، ثم ينتقل ابن بطوطة إلى حلب ويطيل الكلام عن قلعتها .

حلب

وهنا يتدخل ابن جُزَىّ فى مساق الرحلة تدخُّلاً طويلاً ، فيتحدث عن مغانى حلب وما قيل فيها من الأشعار .

أنطاكية

وبعد جولان طويل يصل ابن بطوطة إلى أنطاكية ، وهى أيضاً من فتوح الملك الظاهر بيبرس ، ويتغنى بأشجارها وأنهارها وبنهر العاصى

(١) أعنى : كانوا ينطقون باللفظ (جَبون) بالجيم، واليوم (خبون) بالخاء .

الذى يمر خارجها ، وينزل بها فى زاوية حبيب النجار « وفيها الطعام للوارد والصادر ، وشيخها الصالح المعمَّر محمد بن على وسِنُّه ينيف على المائة » ، ويقول : «ورأيت ابنه قد أَنَافَ على الثمانين ، إلا أنه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض، ومن يراهما يظن الوالدَ منهما ولداً والولدَ والداً ! » (ص٦٩) .

حصون الإسماعيلية «الفداوية» واستخدام الناصر ابن قلاوون لهم

وعندما يصل إلى حصن القدْمُوس وحصن المينقة وحصن العليقة وحصن مصياف وحصن الكهف ؛ يقول إن هذه هى حصون الإسماعيلية المعروفين بالفداوية ، ويقول إنهم سهام الملك الناصر بن قلاوون ، بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه بالعراق وغيرها ، ولهم المرتَّبات، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدوٍّ له أعطاه دِيَتَه، فإنْ سَلِمَ بعدما تَأَتَّى له ما يراد منه فهى له ، وإن أُصيب فهى لولده . وقد قرأنا كثيراً عن هؤلاء الفداوية المعروفين بالحشَّاشين ، ولكننا لا نعرف إن كانوا حقًّا فى خدمة السلطان الناصر بن قلاوون كما يقول ابن بطوطة ؟..

جبلة وقبر إبراهيم ابن أدهم

ثم يصل إلى جبلَة فيزور قبر إبراهيم بن أدهم الزاهد ، ويُطيل الحديث عنه ويحكى عنه أخباراً هى الغاية فى الطرافة . وأخبار إبراهيم بن أدهم الزاهد فى الكتب العربية قليلة، ومعظمها فى كتب الأتراك ، ولهذا فإن حديث ابن بطوطة عنه عظيم القيمة بالنسبة لتاريخ التصوف الإسلامى .

حصن المرقب وجبل لبنان ، وبعلبك ، والدِّبس (المَلْبن) والثياب البعلبكية

وعند حصن المرْقب يدخل جبل لبنان ويُطيل الحديث عنه ، وعما فيه من الخيرات، وينزل بَعلبك ويُعجب بأنهارها الجارية ، ثم يتكلم عن الدِّبس الذى يُصنع بها ، وهو المَلْبَن ، وقد ذكره ابن بطوطة بهذا الاسم ويقول إنه يسمَّى أيضاً بجلد الفرس، ويقف طويلاً عند الثياب البعلبكية الشهيرة ، وخاصة ملابس الإحرام الناصعة البياض التى كانت تُصنع بها .

صناعة الصحاف والملاعق

ولم يُقم فى بعلبك إلا بياضَ نَهارِها ولكنه يحدثنا عن صناعة الصِّحاف - أى : الأطباق - من الخشب هناك ، ويقول إنهم يسمُّونها بالدُّسوت ، وكذلك صناعة ملاعق الخشب ، ويبلغ من مهارة أهلها فى صناعة الدسوت أنهم يصنعون منها نوعاً يضم الواحد منها عشر صحاف ، واحداً فى داخل الآخر ، وعشر ملاعق تدخل واحدة منها فى الأخرى وتوضع فى جراب ، ويقول : «ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل فى حزامه وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك ، فيظن رائيهِ أنها ملعقة واحدة ، ثم يُخرج من جوفها تسعاً ! » (ص ٧٩) .

وهذه الملاحظة جديرة بأن تسترعى إليها أنظار من يحسبون أن تناول الطعام باليد تقليد عربى أصيل ، وأننا لم نعرف الأكل - بالملاعق - إلا عن الإفرنج !

دمشق

وأخيراً وصل إلى دمشق فى يوم الخميس ، التاسع من رمضان سنة ٧٢٦هـ/ العاشر من أغسطس ١٣٢٥م ، وكان شوقه إليها قد طال حتى إنه لم يمكث فى بعلبك إلا نهاراً ثم خرج إلى دمشق .

وحديث ابن بطوطة عن هذا البلد حديث طويل حافل بالمعلومات ، ولكنَّ جانباً كبيراً من الكلام مُستقًى من رحلة ابن جُبير أدخله ابن جُزَىّ ، وأشار إلى ذلك فى قليل من المرات وترك الباقى غُفْلاً ، ولهذا فإننا نجد هنا تفاصيل معمارية عن مسجد دمشق - أى : الجامع الأموى - لم نألفها من ابن بطوطة .

ابن تيمية

وفى أثناء حديثه عن علماء دمشق يقف طويلاً عند تقىِّ الدين بن تيمية ويقول إنه : « كبير الشام ، يتكلم فى الفنون[1] إلا أن فى عقله شيئاً » ، ونفهم من هذه العبارة أن هذا كان رأى العامة فى ابن تيمية ، لأن ابن بطوطة يعرض فى كثير من الأحيان رأى أوساط الناس ، والسبب فى ذلك أنه كان بالفعل يصاحب العلماء والفقهاء والقضاة ، ولكن معظم نزوله

(١) أى : فى العلوم .

ومعيشته كان فى الزوايا والمدارس ، ومعظم وقته كان يقضيه فى المساجد والأسواق ، يستمع أحاديث الناس ، وكان شديد الولع بذلك .

وكان الصوفية وأصحاب الكرامات والأولياء ألدَّ أعداء ابن تيمية ، لا يزالون يتتبعونه ويلصقون به التهم حتى دخل السجن ثلاث مرات ، خرج منه المرتين الأُوليين بتدخُّل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ولكنه مات فى الثالثة ، وظل يؤلف فى السجن حتى منع عنه أعداؤه الورق والقلم ، فأسرع هذا بموته .

ولا شك أن هؤلاء الصوفية هم الذين أعطوا ابن بطوطة هذه الفكرة عن إصابة ابن تيمية بلوثة . ويقول إنه رأى ابن تيمية قبل دخولِهِ السجنَ للمرة الثالثة ، وهذا معقول لأن ابن تيمية توفى سنة ١٣٢٨م ، وكان ابن بطوطة فى دمشق ابتداء من أغسطس سنة ١٣٢٥ م كما ذكرنا .

خطأ لابن بطوطة فى توقيت الحوادث

وهنا نجد ابن بطوطة يخلط فى التواريخ ، فيذكر أشياء وقعت فى الشام وشهدها فى زيارة له تالية بعد ثلاث وعشرين سنة، أى: سنة ٧٤٩هـ ، مثل الوباء الكبير الذى اجتاح الدنيا فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، وهو يسمِّيه الطاعون الأعظم.

وكان ينبغى أن يذكره فى موضعه من الرحلة ، ولكنه ذكره الآن ، أى: فى سنة ٧٢٥هـ . والمهم لدينا أن ابن بطوطة يذكر الإجراءات التى اتبعتها الحكومة المملوكية فى مقاومة الوباء .

إجراءات مقاومة الوباء

فقد دعا نائب السلطنة فى دمشق الأمير أرغون المنادى وَأَمَرَهُ بأن يجمع الناس جميعاً فى المسجد الأعظم ، فاجتمع الأمراء والشرفاء والفضلاء والقضاة وسائر الطبقات على اختلافها فى الجامع حتى غَصَّ بهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حُفَاة .

وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وإناثاً ، صغاراً وكباراً ، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم، ومعهم النساء والولدان ، وجميعهم باكون

متضرِّعون إلى الله بكتبه وأنبيائه ، وقصدوا « مسجد الأقدام » وأقاموا به فى تضرُّعهم ودعائهم إلى قُرب الزوال .

وعادوا إلى البلد فصلُّوا الجمعة وخفَّف الله تعالى عنهم ، فانتهى عدد الموتى إلى ألفين فى اليوم الواحد ، وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفًا فى اليوم الواحد ، وربما كان السبب فى ذلك - على حسب رأيه - أن حكومة القاهرة لم تتخذ الإجراءات الحاسمة التى اتخذتها سلطات دمشق.

ومعنى هذا أن ابن بطوطة يرى أن الإجراءات الحازمة التى اتخذها نائب السلطان الأمير أرغون أتت بنتيجة طيبة فى مواجهة الطاعون .

وحديث ابن بطوطة عن الشام حديث زاخر فيَّاض ، لأن الرجل أحبَّ هذا البلد فأفاض فى الكلام عن فضائله ، فهو يُعجب باتساع الأوقاف وأنواعها ، ووفرة المال المُحبَّس عليها ؛ فهناك أوقاف للعاجزين عن الحج، وأوقاف لتجهيز البنات إلى أزواجهنَّ ، وأوقاف لِفِكَاكِ الأسرى ، وأوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جانبيه يمر عليهما المترجِّلون، ويمر الركبان بين ذلك(ص٩٩).

ويبدو أن ابن بطوطة حَسَنُ الظن فصدَّق كل ما قاله له الفقهاء ، لأنهم كانوا هم الأوصياء على هذه الأوقاف ، فإذا قرأنا كتاب « منامات الوهرانى » رأينا فيها حديثا عجباً عما كان يصيب الأوقاف فى مصر والشام.

وهنا لا بد من الإشارة إلى ما اتصف به ابن بطوطة فى حديث رحلاته كلها من ميل إلى تصديق ما يسمع من الأخبار ، لأنه كان يحسن الظن بالناس ، ولا ينكر من أحاديثهم شيئاً إلا إذا خالف العُرف والمألوف ، وعلى أىِّ حال فإنه لم يروِ إلا القليل من أخبار هذا الطراز .

* * *